الثقافة العلمية للفتيان.. المستقبل الحائر

أ. محمود قاسم

هل تلقى الفتى العربى المعاصر ما يستحق من ثقافة علمية تليق بطموحاتنا، وهل يتجه المستقبل حاملاً معه معرفة حقيقية قائمة على اليقين، أم أنه صار يستسهل الغش الإليكترونى فى الامتحانات، لدرجة صار الأهم هو الحصول على الشهادة، وسط مؤامرة تصوغها العقلية العربية ضد نفسها.

ماذا عن المستقبل الحائر للثقافة العلمية للفتيان فى العالم العربى، ومن أجل التعرف على مستقبل الثقافة العلمية للفتيان، فلابد أن نتعرف ماذا تلقاه هذا الفتى، خلال السنوات الماضية من ثقافة علمية، وأيضا كيف استقى ثقافته العلمية من مجلات الأطفال العربية، قليلة العدد، ودعونا ننظر إلى الجوائز التى تمنح لإصدارات الفتية فى المكتبات، وهل هناك جائزة لتبسيط العلوم.

يجب أن نعترف، أنه فى عالمنا العربى، لا توجد مجلة عربية واحدة متخصصة فى العلوم، لا للأطفال، ولا للفتيان، سوى مجلة واحدة، تصدر للأسف مرتين كل عام ولم نعد نراها كثيرًا فى سوق المجلات العربية، تصدرها المنظمة العربية للعلوم والتربية والثقافة (اليكسو) فى تونس، وهى تصدر فى ظروف تحتاج إلى مساندة ملحوظة.

وللأسف فإننا سوف نكتشف أن فتيان اليوم لم يتلقوا إلا كل ما هو سطحى، وقليل من الثقافة العلمية، فى المجلات العربية السائدة، فى الوقت الذى توقفت فيه مجلة "العربى العلمى" عن الصدور، دون أن نعرف، هل لأسباب اقتصادية أم لأسباب أخرى.

وعلى الجانب نفسه، فإن دور النشر المتخصصة فى العلوم، ومنها الدار الأكاديمية لا تصدر كتبًا باللغة العربية فى العلوم للأطفال، وتندرج الأمور نفسها فى برامج الإذاعة والتلفزيون المخصصة للكبار، والصغار وكافة الأعمار.. وتلك مشكلة.

وقبل أن نستطرد فى حديثنا، فإن الفتيان يتلقون أقل قدر من الثقافة العلمية وتبدو الأحمال موضوعة فوق أكتاف الأسرة التى ينبغ فيها ناشىء فى مجال العلم، وقد قابلت أثناء رحلتى، الكثير من أولياء الأمور الذين يبحثون عمن يتولى اكتشاف مواهب أبنائهم، ويشتكون من زيادة برامج اكتشاف نجوم الطرب، وكرة القدم وفنون عديدة، فى الوقت الذى تنعدم فيه الأنشطة لتشجيع واكتشاف علماء صغار.

ولو راجعنا مجلات الأطفال التى يقرأها الصغار فى الوطن العربى، ومنها "سمير" و"الأبطال" و"علاء الدين" و"ماجد" و"باسم" و"العربى الصغير"، فسوف نجد أن هناك مجلات بعينها لا تتعامل وبعضها تقلص إصداره مع الثقافة العلمية بأى درجة من الدرجات، أما المواد المنشورة فى معظمها فتعتمد فى المقام الأول على الحماس الفردى الذى يقوم به الكتاب، ثم ما يتبعه من حماس إدارة التحرير.

هذا هو الحال الآن، ومنه يمكن قراءة المستقبل القريب.. فليس هناك مشروع بعينه لدى هذه المجلات لتشجيع الطفل الموهوب علميًا لتقديم اختراعه أو للحديث عن تجربته العلمية،

وهناك هوة واسعة بين المجلات وقرائها من محبى العلوم، والمبتكرين الصغار.

ولو نظرنا إلى هذا النوع من الثقافة العلمية المنشورة فى المجلات المشار إليها فسوف نكتشف أنها أيضًا تدخل تحت الثلاثى المتعارف عليه فى الثقافة العلمية لدينا، أى : تبسيط، ترجمة، وتلخيص، ثم نقل الصور.

لكن، ليست هناك بادرة واحدة تدعو إلى الابتكار فى هذه المجلات، وهناك علاقة مقطوعة تمامًا بين هذه الإصدارات وبين نوادى العلوم فى بعض المؤسسات خاصة فى الوزارات المسئولة عن الفتيان.

يمكن أن نكرر نفس ما قيل عن هذه الثقافة فيما يخص الكتاب العربى، فالكتب التى تصدرها دور النشر ينطبق عليها نفس الثالوث : الترجمة من الكتب العالمية والتبسيط ونقل الصور، نعم، نقل الصور، فليس هناك حتى محاولة من أجل منح فرصة للرسام العربى من أجل القيام برسم المادة العلمية بمخيلة عربية.

العملية مرتبطة بالمصادفة فى المقام الأول، أى أن الناشر الذى يتحمس لعمل كتب علمية فإنه ينظر إلى جدوى توزيعها، ويوجه اهتمامه بأن تقوم مكتبات مدارس التربية والتعليم باقتنائها، وفى الفترة الأخيرة قامت دور نشر كبرى بإصدار مجموعات من الكتب مأخوذة عن مصادر علمية، كانت الطباعة فاخرة، ولكنها ترتدى قبعة الخواجة.

وللأسف فإنه حتى هذه الكتب قد توقفت بعد أحداث الربيع العربى، واختفاء الدور الذى كانت تقوم به السيدة سوزان مبارك حيث لم يسع أحد أو مؤسسة لعمل نشاط بديل.

فى مصر تمنح لجنة ثقافة الطفل، جائزة الدولة التشجيعية فى الثقافة العلمية بين وقت وآخر، وهى عادة ما تمنح فى المرات القليلة فى هذا المجال لكتب تبسيط العلوم، وهى كتب مستوحاة مادتها من المراجع العلمية، وتفتقد إلى الابتكار الحقيقى، وبهذه المناسبة، فالدعوة مفتوحة من أجل ابتكار جائزة يمنحها المجلس الأعلى للثقافة مشاركة بين لجنة ثقافة الطفل، ولجنة الثقافة العلمية للأطفال المبتكرين أنفسهم، وفى هذا ترسيخ للثقافة العلمية الخاصة بالطفل بعيدًا عن التبسيط والتلقين والنقل الذى يقوم به الكبار، وفيه تشجيع واضح لـ "الابتكار".

برامج الإذاعة والتليفزيون العلمية المخصصة للفتيان غير موجودة بالمرة، وعندما كانت فى الخريطة كانت غير جذابة وذلك قياسًا إلى ما يقدم إلى الفتيان من برامج ترفيهية وتسلية، ومسلسلات تعتمد فى المقام الأول على التراث فى نفس الوقت الذى تبدو فيه تفاهة أفكار المسلسلات العلمية، أو البرامج المتعلقة بالعلوم، وهناك مفارقة فى حاجة إلى الالتفات إليها، وهى أن البرامج العلمية للأطفال حائرة فى قطاع القنوات المتخصصة بين قنوات البحث العلمى، وقناة الأطفال، كما أن من يكتبون البرامج القليلة يعتمدون أيضا على مسألة الثالوث : النقل، والتبسيط، والترجمة، والغريب أننا فى إطار التعامل مع التطور الأقل فى التقنيات والعلوم لا تزال تقدم برامج العلوم، خاصة للأطفال بنفس المنظور القديم المتكرر.

وبمراجعة ما يسمعه الأطفال فى الإذاعة، فليس لدينا بالمرة "حكاء" جذاب ومتخصص يمكنه أن يروى للصغار حكاية علمية، والمدهش أن الكاتب الذى يكتب قصص إذاعية، متخصص فى كل شىء، يروى القصة التاريخية، والدينية والعديد من الأشكال المتعارف عليها حتى إذا وجد أمامه مصدر علمى، فلا مانع أن يقدمه بين فترات متباعدة.

ينظر الناس فى عالمنا العربى إلى الخيال العلمى نظرة متدنية هامشية، قد تصل إلى حد الخصومة، خاصة الكبار، فالخيال العلمى مرتبط بالتخيل، والتنبؤ بما يمكن أن ينجزه العلم ويرى الكثيرون أن مثل هذه الرؤى من أمر الله سبحانه وتعالى، وكأنه من المحرم على البشر أن يتخيلوا المستقبل، أو أن يتنبأوا بما سوف يصير عليه المستقبل غير واضعين فى الأذهان أنها أمور افتراضية وأن الواقع دومًا أكثر غرابة من الخيال وأنه فى الكثير من الأحيان فإن التخيل، وافتراض واقع غير موجود يمكن تدبيره وذلك مثلما حدث فى ١١ سبتمبر فلا شك أن منفذى هذه العمليات، قد شاهدوا الكثير من أفلام التخيل العلمى، وروايات التجسس واستطاعوا أن يفهموا إيجابيات وسلبيات العمليات المتوقعة.

وفى قصص الخيال العلمى العربى، فإن الكتاب غالبًا لم يخرجوا عن الموضوعات التقليدية بالسفر إلى الفضاء، أو الرحيل عبر الزمن، وكثيرًا ما تختلط المفاهيم العلمية لدى كتاب الأطفال بين التخيل المرتبط بالعلم، والتخيل الجامح أو المعروف باسم الفنتازيا، وما يسمى بتحت الأنواع المنبثقة عن الخيال العلمى.

ويمكننى أن أذكر هنا أن باحثين عديدين، وباحثات حصلوا على رسائل الماجستير، والدكتوراه فى الخيال العلمى للأطفال، كانوا يقومون بالرجوع إلينا واكتشفنا أنهم، والسادة المشرفين على رسائلهم ليست لديهم معرفة مؤكدة بالمفهوم الحقيقى لمصطلح الخيال العلمى، أو كافة المصطلحات العلمية الخاصة بالتخيل العلمى. مما يعنى تشويش المعرفة الخاصة بهذا النوع من الأدب المنتشر عالميًا، للكبار والصغار معا.

والغريب أنه فى عام ٢٠١٥ تم حجب جائزة الدولة فى مصر فى مجال التخيل العلمى، أى أن اللجنة التى قرأت الأعمال المتقدمة، قد وجدت أن كافة النصوص التى تقدم أصحابها لنيل الجائزة لم تتضمن الخيال العلمى، والطريف فى هذا الشأن أن أسماء أعضاء اللجنة لم تكن لديهم أى خبرة سابقة بمعرفة هذا النوع من الأدب الموجود بقوة فى الثقافة العالمية طوال قرنين من الزمن.

هذه رؤى خاصة بواقع ومستقبل الثقافة العلمية الموجهة للفتيان فى العديد من الوسائل، وهو واقع لا ينبىء عن أى محاولات لمستقبل أفضل، فمن خلال المفاهيم والأنشطة الآتية يمكن أن نتكهن أن المستقبل قد يستمر على هذا الحال لربع قرن على الأقل، ولا يمكن أن نغفل أهمية عمل متحف للعلوم وقد فشلت هذه المحاولة، ولم تطبق ولكن متحفًا واحدًا لا يكفى، وخاصة أن الأطفال خارج العواصم العربية يحتاجونه؛ حيث إن إنشاء هذا المتحف لم يشجع على تكرار التجربة فى مدن أخرى، وأن الثقافة العلمية لا تنبع فقط من المتاحف العلمية، بل أن ثقافة الابتكار تحتاج إلى معامل، وأرصدة مالية، وأساتذة مؤمنين بتشجيع الأجيال الجديدة على الابتكار العلمى عند الفتيان.